

التحرير والتنوير

إليه أوحاه مما بعضها التي " السلام عليه " داود أقوال لجموع اسم : والزبور A E وبعضها مما ألهمه من دعوات ومناجاة وهو المعروف اليوم بكتاب المزامير من كتب العهد القديم .

(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا [56]) لم أر لهذه الآية تفسيراً يثلج له الصدر والحيرة بادية على أقوال المفسرين في معناها وانتظام موقعها مع سابقها ولا حاجة إلى استقراء كلماتهم . ومرجعها إلى طريقتين في محمل (الذين زعمتم من دونه) إحداهما في تفسير الطبري وابن عطية عن ابن مسعود والحسن . وثانيتهما في تفسير القرطبي والفخر غير معزوة لقائل .

والذي أرى في تفسيرها أن جملة (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) إلى (تحويلا) معترضة بين جملة (ولقد فضلنا بعض النبيين) وجملة (أولئك الذين يدعون) . وذلك أنه لما جرى ذكر الأفضلين من الأنبياء في أثناء آية الرد على المشركين مقالتهم في اصطفاء محمد A للرسالة واصطفاه أتباعه لولايته ودينه . وهي آية (وربك أعلم بمن في السماوات والأرض) إلى آخرها جاءت المناسبة لرد مقالة أخرى من مقالاتهم الباطلة وهي اعتذارهم عن عبادة الأصنام بأنهم ما يعبدونهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى فجعلوهم عباداً مقربين ووسائل لهم إلى الله . فلما جرى ذكر المقربين حقا انتهزت مناسبة ذكرهم لتكون مخلصاً إلى إبطال ما ادعوه من وسيلة أصنامهم على عادة إرشاد القرآن من اغتنام مناسبات الموعظة . وذلك من أسلوب الخطباء . فهذه الآية متصلة المعنى بآية (قل لو كان معه آلهة كما تقولون إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا) . فبعد أن أبطل أن يكون مع الله آلهة ببرهان العقل عاد إلى إبطال إلهيتهم المزعومة ببرهان الحس وهو مشاهدة أنها لا تغني عنهم كشف الضر .

فأصل ارتباط الكلام هكذا : ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناهم داود زبوراً وأولئك الذين يدعون يبتغون الآية . فبمناسبة الثناء عليهم بابتغالهم إلى ربهم ذكر ضد ذلك من دعاء المشركين آلتهم . وقدم ذلك . على الكلام الذي أثار المناسبة اهتماماً بإبطال فعلهم ليكون إبطاله كالغرض المقصود ويكون ذكر مقابله كالأستدلال على ذلك الغرض . ولعل هذه الآية نزلت في مدة إصابة القحط قريشاً بمكة . وهي السبع السنون التي هي دعوة النبي A : (اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف) . وتسلسل الجدل وأخذ بعضه بحجز بعض حتى انتهى إلى هذه المناسبة .

والملك بمعنى الاستطاعة والقدرة كما في قوله (قل فمن يملك من الله شيئاً) وقوله (قل

أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا (في سورة العقود .
والمقصود من ذلك بيان البون بين الدعاء الحق والدعاء الباطل . ومن نظائر هذا المعنى
في القرآن قوله تعالى (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعون
من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) في سورة الأعراف .
والكشف : مستعار للإزالة .

والتحويل : نقل الشيء من مكان إلى مكان أي لا يستطيعون إزالة الضر عن الجميع ولا إزالته
عن واحد إلى غيره .

(أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أنهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذاب
ربك كان محذورا [57] والإشارة ب (أولئك الذين يدعون إلى النبيين لزيادة تمييزهم .
والمعنى : أولئك الذين إن دعوا يستجيب لهم ويكشف عنهم الضر وليسوا كالذين تدعونهم فلا
يسلكون كشف الضر عنكم بأنفسهم ولا بشفاعتهم عند الله كما رأيتم من أنهم لم يغنوا عنكم من
الضر كشفا ولا صرفا .

وجملة (يبتغون) حال من ضمير (يدعون) أو بيان لجملة (يدعون) .
والوسيلة : المرتبة العالية القريبة من عظيم كالمملك .

و (أيهم أقرب) يجوز أن يكون بدلا من ضمير (يبتغون) بدل بعض وتكون (أي) موصولة .
الذي هو أقرب من رضى الله يبتغي زيادة الوسيلة إليه أي يزداد عملا للازدياد من رضى الله عنه
واصطفائه .

وجوز أن يكون بدلا من جملة (يبتغون إلى ربهم الوسيلة) (أي) استفهامية أي يبتغون
معرفة جواب : أيهم أقرب عند الله .

وأقرب : اسم تفضيل ومتعلقة محذوف دل عليه السياق . والتقدير : أيهم أقرب إلى ربهم .